قال: سبحان الله. وإذا رضي عن شيء أو سره شيء قال: الحمد لله. وإذا أعظمه أمر يَسُرُّ أو يسوء قال: الله أكبر. وإذا أحس من حوله شرًّا يدنو منه أو يبعد عنه قال: لا إله إلا الله.

وكان الناس يحبون خالدًا في المدينة ويعجبون به ويودون لو أن أباه ترك له تجارته، وفرغ هو لما يعنيه من أمر دنياه وأمر دينه، ولكن أباه كان شديد النشاط لم يشعر بعد بالضعف، ولم يحتجْ بعد إلى الراحة، وهمَّ خالد أن يُعين أباه على تجارته، فلم يرَ من أبيه ابتهاجًا بهذا العون، ولم يرَ من نفسه ميلًا إلى التجارة، وكان له ابن عم لم نتحدث عنه إلى الآن — ويظهر أننا سنكثر الحديث عنه منذ الآن — كان له ابن عم يدعى سليمًا، تُوفي عنه أبوه محمد ولما يبلغ السنتين من عمره، فكفله عمه علي من بعيد، يقوم بحاجته ويشمله ويشمل أمه خديجة بالبر المتصل، ولكن خديجة توفيت عن ابنها ولما يتم العاشرة من عمره، فكفله علي من قريب، ضمه إليه، وأقره في داره، واتخذه لخالد أخًا، فكان يقسم بينهما حبه وعطفه وبره، وتلقت أم خالد هذا الصبي لقاء حسنًا، فبرته ورفقت به كما كانت تبر ابنها وترفق به، ورحم الله أم خالد! فقد كانت خيِّرة من جميع نواحيها، ولم تكن أم خالد إذا تحدثت إلى ابنها عن سليم تقول له: ابن عمك قال كذا أو كذا أو فعل كذا أو كذا. وإنما كانت تقول له: أخوك قال أو فعل.

وكان سليم يَكبر خالدًا بثلاثة أعوام، فكانت أم خالد تلقي دائمًا في روع ابنها أنَّ سليمًا أخوه الأكبر وأن له عليه حق الكبير على الصغير، وقد أنفق خالد صباه وهو مؤمن بأن سليمًا أخوه، لم يتبين حقيقة الصلة بينهما إلا حين تقدمت به السن شيئًا، ولكن ذلك لم يغير من سيرته مع سليم قليلًا ولا كثيرًا، أحبه دائمًا، وأكبره دائمًا، ووقره دائمًا، وآثره دائمًا على إخوته بعد أن كثروا، فلم يكن يولي أبناء العلات من إخوته وأخواته إلا ميلًا قليلًا وعطفًا معتدلًا، فأما سليم فقد كان له وده كله وإخاؤه كله، حتى كان الناس يضربون المثل بما كان بين هذين الشابين من تعاطف ومودة.

وقد تتابعت الأيام والأشهر والأعوام ومضى جيل من الناس وأقبل جيل، فلم يكد الجيل الطارئ يشك في أن خالدًا وسليمًا أخوان أبوهما علي وأمهما تلك التي يقسم لها علي بعد أن ماتت يومها فيما يقسم من أيامه بين نسائه، وكان الشيوخ يبسمون في حنان ورضا إذا سمعوا أحاديث الشباب بذلك، وقلما كانوا يردونهم عن هذا الخطأ الذي يصور مثلًا نادرًا للمودة والإخاء. وقد بعدت الأسباب شيئًا بين هذين الصديقين الأخوين حين بلغ سليم رشده وأسلم إليه علي ما ترك له أبوه، ولم يكن شيئًا ذا غناء؛ فقد جدَّ